أوراق المجلة الدولية للدراسات الأدبية والإنسانية ـ مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة ـ جامعة باتنة1 ـ الجزائر
ISSN 2779-2940 EISSN....-.... المجلد 02 العدد 01 (مارس ، 2020م) ص95إلى 134

مرجعيات الثقافة الجزائرية عند الأنثروبولوجيين الكولونياليين (كتاب الأنثروبولوجيين أنموذجا).

Algerian Cultural References in Colonial Anthropologists The book of Algerian Anthropologists Case Study

أ. د. معمر حجيج *

جامعة باتنة 1، maahadjidj@yahoo.fr

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ القبول
2019/11/20م	2020/01/04م	2020/01/04م

ملخص

نحاول في هذه البحث مناقشة بمنهج وصفي تحليلي إشكالية شخصنة مرجعيات الثقافة الجزائرية، وخطاب الهوية في كتابات الأنثروبولوجيين الكولونياليين الفرنسيين منذ أن وطئت أقدامهم أرض الجزائر في جويلية 1830 في سيدي فرج، ومنذ ذلك التاريخ لم تخب المعركة بين الطرفين الجزائري والفرنسي سواء كانت حربية أم فكرية، وكانت هذه المعركة الطويلة من الطرف الآخر ذات طابع استعماري بحت، وفي خضم ذلك لم ينته الجدل المفتوح بين الواقع الثقافي، ومرجعيات ومكونات الهوية الحقيقية الجزائرية الرافضة والمتحدية كما هي في الواقع آنذاك، وبين بعض ما جاء في كتابات هؤلاء الأنثروبولوجيين في محاولاتهم تحييد الأفكار بقدر الإمكان والتركيز على شخصنة مرجعيات الحياة الثقافية الجزائرية.

الكلمات المفتاحية: ثقافة؛ أنثروبولوجيا؛ استعمار؛ هوية؛ لغة؛ دين؛ تاريخ

Abstract

The current investigation attempts to discuss the issue of Personalization of Algerian cultural references and identity discourse in French colonial anthropologists writings since they settled in Sidi Fradj, Algeria, in July 1830. Since then, both ideological or war battle between the Algerian and French sides has never failed. On the other side, this long battle was of a purely colonial character in the midst of this, the open debate between cultural reality, components of the true Algerian rejecting and challenging identity did not end, as it was in reality at the time from one side; and from the other side some of what was stated in the writings of these anthropologists in their attempts to neutralize ideas as much as possible and focus on personalizing the references of Algerian cultural life.

Keywords: culture; anthropology; colonialism; identity; language; religion; history.

* المؤلف المرسل

1 ـ مقدمة

نحاول في هذا البحث مناقشة بمنهج وصفي تحليلي إشكالية شخصنة مرجعيات الثقافة الجزائرية وخطاب الهوية في كتابات الأنثروبولوجيين الكولونياليين الفرنسيين منذ أن وطئت أقدامهم أرض الجزائر في جويلية 1830 في سيدي فرج، ومنذ ذلك التاريخ لم تخب المعركة بين الطرفين الجزائري والفرنسي سواء كانت حربية أم فكرية، وكانت هذه المعركة الطويلة من الطرف الآخر ذات طابع استعماري بحت، وفي خضم ذلك لم ينته الجدل المفتوح بين الواقع الثقافي، ومرجعيات ومكونات الهوية الثقافية الحقيقية الجزائرية الرافضة والمتحدية كما هي في الواقع آنذاك، وبين بعض ما جاء في كتابات هؤلاء الأنثروبولوجيين في محاولاتهم تحييد الأفكار بقدر الإمكان، والتركيز على شخصنة مرجعيات الحياة الثقافية الجزائرية، والتشبث بجعل هويتها مجرد مظاهر أشتات لأشياء هامشية لإفراغها من مضمونها اللساني والفكري والروحي والاجتماعي والحضاري، ومحاولة شحنها بما يخدم استراتيجية هيمنته الاستعمارية، وقد تبين لنا أن كتابات هؤلاء الأنثروبولوجيين تثبت بما لا يدع مجالا للشك أنها قد أفرغت من محتواها العلمي الموضوعي المنهجي في فهم إنسانية المجتمع الجزائري وثقافته وحضارته الضاربة في أعماق التاريخ، وجعلت منه مجرد أداة لفهم هذا المجتمع الجزائري الغريب عنهم، وهذا ما أدى ببعضهم إلى الحكم بأنه لا يختلف عن مجتمع الهنود الحمر في أمريكا، كما حاولوا تشويه مرجعيات ومكونات الهوية الثقافية الجزائرية وتفكيكها، وتحريف مضمونها لغرض تثبيت أقدام الاستعمار.

2 ـ كتابات غربية عن الجزائر ما قبل الاستعمار

يلاحظ على كتابات هؤلاء الأنثروبولوجيين في مجملها أنها تحاول التعتيم على مرجعيات الواقع الثقافي الجزائري، وهويته الضاربة في أعماق التاريخ، وهذا ما تفنده تلك الكتابات التاريخية القديمة بداية بهيرودوت الذي كتب بشكل دقيق ومطول عن شخصية الإنسان الليبي وثقافته ودينه، وبحسب هذا المؤرخ الإغريقي فإن بوصيدون إله الليبيين بالأصل، إذ قال: "إن ما من شعب عرف عبادة هذا الإله في القديم إلا الليبيين، كما أشار إلى أن كلمة بوصيدون كلمة لليبيين القدامى، وأن الإغريق قد عرفوه عنهم، وهذا ما ذكره في كتابه الثاني، ويمكن أن نتجاوز المرحلة الفينيقية والرومانية والبيزنطية والوندالية والعربية، إلى الفترة القريبة من استعمار الجزائر، فلا نجد هذه الضبابية المتعمدة في كتابات هؤلاء وكأنهم يتكلمون عن جزيرة مهجورة يسكنها متوحشون، وتكتشف لأن مرة، بل كانت الجزائر حاضرة متفاعلة مع كل الحضارات والديانات والثقافات القديمة.

ونكتفي بذكر بعض كتابات الغربيين أنفسهم عن الجزائر في عهد قريب من تاريخ بداية الغزو الفرنسي للجزائر لندحض تلك الضبابية المتعمدة في كتابات ما اصطلح عليه بأنثروبولوجيا الكولونياليين الفرنسيين لخدمة إيديولوجية المستعمِر، وتسويق دمويته، ومن هذه الكتابات نذكر على سبيل المثال كتابات الجغرافي والرحالة لنيكولاي "Nikolay" الذي زار الجزائر في سنة 1551، ومن الرحالة أيضا الدكتور شو "Shaw" الإنجليزي الذي ألف كتابا عن الجزائر بعنوان: جولات في ولايات متعددة ببلاد البربر والشرق، في جزأين، وقد قام بجولات استطلاعية في أرجاء الجزائر بين عامي 1720 و 1732. وكتب القنصل بريس الانجليزي في سنة 1768 رواية في خمسة أجزاء فيها إشارات عن

الجزائر، ومنها أيضا ما قام به فرنثيسكو خيمينيث من كتابات عن وهران في سنة 1732، وكتابات جان أندري بايسونال (peyssonnel) عن الشرق الجزائري بين عامي 1724 و1725 لصالح أكاديمية العلوم، وكتب العالم فانتير دي بارادي الذي كان قد زار الجزائر عام 1789كتابا بعنوان ملاحظات عن الجزائر(notes) sur l'algerie

وكلفت الكنيسة الكاثوليكية هايدو ليكتب عن الجزائر كتابات ذات قيمة علمية مهمة باللغة الإسبانية في سنة 1608، وترجمت إلى اللغة الفرنسية بعنوان الطبوغرافيا والتاريخ العام للجزائر: Topographie et Histoire générale) (d'Algerولا نتجاوز كتابات الرحالة وعالم الطبيعة ديفو التي كانت ثمرة تجواله في الجزائر بين 1783 و1784 ، وكتب القس بوراي عن رحلته في الشرق الجزائري، ولم يغب الرحالة الألمان عن زيارة الجزائر والكتابة عنها، أو الترجمة عمن كتب عنها، ومنها كتاب الرحالة الانجليزي توماس شو بعنوان :"رحلة في ولاية الجزائر 1765"، وكتاب الشاعر الإيطالي بانانتي سنة 1824 بعنوان (رحلة إلى سواحل البرابرة)، ولا يسمح المقام بذكر كل ما كتب عن الجزائر في هذه الفترة." (Geoscience، ينظر، 2017)

3 ـ التحديد المعرفي للمفاهيم

نحاول في البدء تحديد بعض المفاهيم المؤسسة لهذا البحث، ومنها مفهوم الشخصنة، وأبعادها النفسية المرضية، والثقافة ومقوماتها، والحضارة ومظاهرها، والأنثروبولوجيا الثقافية وعلاقتها ببقية علوم الإنسان والبرهان والبيان من تاريخ وفنون وعلم اجتماع.

3 ـ 1 المفهوم المعرفي للشخصنة

تستعمل كلمة الشخصنة في معناها اللغوي، ويقصد بها شَخْصَنة أي قضية من القضايا الثقافية والفكرية والنفسية والاجتماعية؛ أي فهمها وفرضها على الآخرين من وجهة نظر شخصية، أي إعطاء الجدل العلمي طابع وصبغةً شخصيّة في القضايا والمسائل المطروحة للمعرفة.

وشخصنة المعرفة قد يقصد بها في الدراسات الفكرية والنفسية والحجاجية لظاهرة الاستعمار تلك الأحكام الصادرة من موقف المستعمِر غير الموضوعي والمتعمد إزاء الخصم المستعمَر، ويتحول إلى مرض نفسي وثقافي وفكري، ويبدو في صورة تضخم "أنا" المستعمِر إزاء "الآخر" المستعمَر، ويؤدي إلى إصدار الأحكام جزافا على ثقافتهم ودينهم وتاريخهم وأفكارهم، ووجهات نظرهم، وتصرفاتهم، من مُنطلق مرض الشخصنة لتبرير عدوانه، ومن ثم نرى خبراء المستعمِر وعلماءهم يدعون المعرفة العلمية الموضوعية، وهم يقلبون الحقائق، ويحكمون على أي شعب أو أمة تقاومهم، أو حركة تعارضهم، أو أي انتفاضة تصارعهم بالحط منها، أو نقول هي نوع من الحجاج السفسطائي المدعي لامتلاك الحقيقة الكاملة، وهذا ما أصاب حضارة الغرب وفكرها الثقافي الاستعماري الذي جعل من نفسه نموذجا كونيا لما يجب أن تكون عليه أي أمة، وإلا الحكم عليها بالإبادة، أو الدفع بها للتخلي عن ثقافتها وهويتها لتمكين المستعمِر من نفسها والخضوع الكامل له، والشخصنة الاستعمارية لثقافة غيرهم مسلم بها في فهم الآخر بتحييد الأفكار، والتركيز على الأشياء والجوانب المظهرية من منطلق الاستعلاء، والتحضر، والتفوق الجنسي العرقي العنصري في مقابل الدونية والتخلف والتوحش للآخر، وهكذا تتحول الشخصنة إلى إيديولوجية استعمارية

تلقى رواجا لدى نخب الدول الاستعمارية، ويصبحون مرضى بحب التعالي أو شخصنة الحقائق.

3 ـ 2 مفهوم الثقافة ومقوماتها

3 ـ 2ـ3 المفهوم المعجمي

جاء في لسان العرب: "ثقف: ثقف الشيء ثقفا وثقافا وثقوفة: حذقه. ورجل ثقف وثقف: حاذق فهم، وأتبعوه فقالوا: ثقف لقف. وقال أبو زياد : رجل ثقف لقف رام راو . اللحياني رجل ثقف لقف، وثقف لقف، وثقيف لقيف، بين الثقافة واللقافة.ابن السكيت : رجل ثقف لقف إذا كان ضابطا لما يحويه قائما به. ويقال: ثقف الشيء وهو سرعة التعلم. ابن دريد : ثقفت الشيء حذقته وثقفته إذا ظفرت به . قال الله تعالى : فإما تثقفنهم في الحرب وثقف الرجل ثقافة أي: صار حاذقا خفيفا مثل ضخم، فهو ضخم، ومنه المثاقفة. وثقف، أيضا ثقفا مثل تعب تعبا أي: صار حاذقا فطنا فهو ثقف، وثقف مثل حذر وحذر ، وندس، ففي حديث الهجرة : وهو غلام لقن ثقف أي: ذو فطنة وذكاء ، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه... كان الثقف والثقاف إلى أن تقوم الساعة، يعني الخصام والجلاد." (ابن منظور أ.، 2003)

2.2.3 مفهوم الثقافة في المعاجم المتخصصة

كلمة ثقافة في الدراسات الحديثة هي مقابلة للكلمة اللاتينية والفرنسية والإنجليزية (culture)، وجاء في معجم ألفاظ الدراسات الفلسفية الحديثة بتأصيلها وإرجاعها إلى اللغة اللاتينية.

أما ما جاء عن مفهوم الثقافة في المعاجم المتخصصة ومنها معجم الألفاظ في الدراسات الفلسفية أن الثقافة(culture) هي:

- "مأخوذة من حيث تأصيلها من اللفظة اللاتينية (colère)؛ وتعني بمعناها الحقيقي فلاحة الأرض، وأما بمعناها المجازي، فكانت تعني الاعتناء أو التعهد بشيء ما.
- أما بمعناها الاصطلاحي؛ فيقصد من دلالتها تحديد نتائج التهذيب للحضارة في شكلها الخاص بالسلوك والعادات الاجتماعية أو الفردية..
- كما قد تعني حالة الإنسان المتطور المستعمل لكل الوسائل التي في حوزته، ومن ثم فإن المثقف يقابل البربري، أو البدائي.
- كما أنها في نظر بعض علماء الاجتماع تصبح مرادفة للحضارة..
- كما أنها تعني كل ما هو في حوزة مجتمع آت من التقاليد الخارجية والتي تشمل مجمل العادات المؤسساتية (الفنون، والقانون، والدين).
- الثقافوية ويقصد بها المدرسة الأنثروبولوجيا لمالونفسكي التي حددت الغاية من الثقافة بحسب ما هو مبين في التحديد الخامس السابق." (AUROUX & WEIL, 1984, pp. 47-78)

وأخذ معجم العلوم الاجتماعية تعريف منتاجو (Montagu) الذي يرى بأن الثقافة هي استجابة الإنسان لإشباع حاجته؛ فهي الوسائل التي يلجأ إليها الإنسان لإشباع تلك الحاجات، وتقوم الحياة الإنسانية على حاجات ضرورية من المأكل والمشرب والملبس والمعيشة في طمأنينة واتقاء الأمراض وإشباع الدوافع الجنسية.. والرغبة في التعليم والمعرفة والفرق بين الإنسان والحيوان في إشباعهما لحاجاتهما هو أن الحيوان يعتمد على مجرد الغريزة في إشباع حاجاته بينما يلجأ الإنسان إلى عقله ليبدع له وسائل وطرقا ينظم بها هذه الوسائل، ويهيئها له. ويستطيع الانسان بعقله وقدرته على التعلم أن ينشئ تلك الوسائل،

ويغير فيها، ويتعلمها عن أجيال سابقة، وينقلها إلى الخلف بعد أن نقلها عن السلف، وهذه الطرق أو التعليم هي ما نسميها باسم النماذج الثقافية... ومنها نماذج معيشية أو نماذج للفكر والعمل، وقد ابتدعها الإنسان في سبيل البحث لإشباع حاجاته المعيشية، وهي نماذج مكتسبة، أي لا يولد الفرد مزودا بها، بل هو يصل إليها عن طريق العقل والتفكير، واستجابة للوسط الذي يعيش فيه، أو عن طريق النقل من المجتمعات الأخرى، إذ يأخذها كما هي أو يحور فيها بما يتفق وظروفه الاجتماعية والثقافية. وإذن فهي تتميز بثلاث خصائص رئيسية:

1 ـ أنها اختراع أو اكتشاف إنساني، فليس للحيوان ثقافة لأنه يعيش على الغريزة، فالثقافة تتميز بأنها إنسانية..

2 ـ أنها تنقل من جيل إلى جيل على شكل عادات وتقاليد ونظم وقوانين، وكل جيل يضيف إليها نماذج جديدة، كما قد تنقل من وسط اجتماعي إلى وسط اجتماعي آخر.

3 - ها قابلة للتعديل والتغير، إذ يلجأ كل مجتمع، وكل جيل إلى تغيير نماذجه، وفق ما يحيط به. (مدكور وآخرون، 1975، الصفحات 199-200)

3.3 مفهوم الأنثروبولوجيا

جاء في معجم الألفاظ الجديدة في الدراسات الفلسفية بأن مصطلح الأنثروبولوجيا مركبة من كلمتين:

- "انُثروبو (Anthropo)؛ وهذا الجذر يعني الإنسان وأنتروبو ساتريزم (Anthropocentrism)؛ وهو مصطلح مركب يضع الإنسان في مركز الكون.
- الأنثروبولوجيا (Anthropologies)؛ وهي علم الإنسان وهي مجموع العلوم الإنسانية الوضعية المهتمة بالإنسان.

- التجسيم (Anthropomorphism)؛ ويعني كل تصور، أو تمثل وتقديم تشكيل بشري لكل ما هو متباين(الإله - الحيوانات)." (AUROUX & WEIL, 1984, p. 14)

وجاء في معجم العلوم الاجتماعية أن أنثروبولوجيا (Anthropologie) بالفرنسية، و(Anthropology) بالإنجليزية؛ وهي مصطلح مركب من لفظين هما:

أ- "أنثر وبوس (Anthropos) بمعنى الإنسان، ولوجوس(Logos) أي الكلمة أو الموضوع أو الدراسة. فالأنثروبولوجيا؛ هي علم الإنسان. ولكن تعبير علم الإنسان واسع بحيث يشمل علوما أخرى هي العلوم الإنسانية... وسمى الباحثون الأنثروبولوجيا بعلم المجتمعات المتأخرة، وسرعان ما استبعد هذا الاسم، لأنه يحمل حكما معياريا على الشعوب البدائية مما لا يتفق والروح العلمية والمنهج الوضعي السليم، ودرج الجغرافيون العرب على تسمية هذا العلم منذ ثلاثين سنة باسم الدراسات البشرية، وهي تسمية لها اعتبارها، لأن كلمة "بشر" تشير إلى الجوانب الفطرية أو السلالية في الإنسان، وهي تتفق مع الميزات العامة لموضوع الأنثروبولوجيا، ويؤثر كثير من الباحثين التعريب على الترجمة.

ب- الأنثروبولوجيا، وهي علم يدرس المجمعات البدائية، وفي ذلك يقول عالم الإنسان الأمريكي مانتشب وايت (M. White)"إننا في استخدامنا لتعبير علم الإنسان لا نقصد دراسة بقدر ما نقصد دراسة الإنسان البدائي، وهذا يعني دراسة المجمعات الفطرية، أو التي ما زالت أقرب إلى الفطرة، وذلك أن دراسة الإنسان المتطور المعقد لمجتمعاتنا المتطورة أو المتحضرة بالمعنى الحضري لهذه الكلمة ليست من مهمة عالم الإنسان، بل هي من مهمة عالم الاجتماع". (مدكور وآخرون، 1975، صفحة 71)

ج- الأثنولوجيا؛ وهي فرع من فروع الأنثروبولوجيا، بصفة عامة، وتعرف بأنها علم دراسة الإنسان ككائن ثقافي وبأنها الدراسة المقارنة للثقافة. عرفها هوبل Hoebel بأنها: فرع من الأنثروبولوجيا يتخصص بتحليل المادة الثقافية وتفسيرها بطريقة منهجية تشبه في سماتها العامة الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية. وتهتم الأنثروبولوجيا بدراسة الأجناس البشرية الموجودة في الوقت الحالي أو التي اختفت خلال الآونة القصيرة، مع الدراسة التحليلية المقارنة للشعوب البدائية. وتهتم الأثنولوجيا أيضا بدراسة الظواهر الاجتماعية في المجتمعات البدائية، وتنتهج منهج تاريخي لكي تكتشف نشأة الظاهرة، وتتبع مراحلها.

4. التعريف بكتاب جزائر الأنثروبولوجيين

قد اخترنا كتاب: «جزائر الأنثروبولوجيين"(L'algerie des anthropologues) للباحثين الفرنسيين فليب لوكاس (Philippe Lucas)، وجون كلود فتان (Jean-Claude Vatin)، الصادر عن دار (François Maspero - PARIS-1975) ولا بد من التعريف المختصر للمؤلفين للكتاب، وهما:

ـ "فليب لوكاس (Philippe Lucas) الذي كان قد درس ما يقارب ثلاث سنوات في معهد الدراسات السياسية في الجزائر كما درس خاصة علم الاجتماع في جامعة ليون الثانية، وهو مؤلف لدراسة عن فرانز فانون (الجزائر 1971)، وأعمال بحثية أخرى عن التحولات في الجزائر، وواصل بحوثه حول إنتاجية المعرفة الاجتماعية.

ـ والمؤلف الثاني هو جون كلود فتان (Jean-Claude Vatin)؛ وهو باحث معروف بأعماله في مركز الأبحاث للدراسات حول مجتمعات البحر الأبيض المتوسط (C.N.R.S) لأيكس أنبروفانس (Aix-en-Provence)، كما كان قد ألف كتاب جزائر السياسة. تاريخ ومجتمع الصادر عن دار ألمارد كولين في باريس سنة 1974، كما

كان مشاركا، ومتعاونا في حوليات الشمال الإفريقي، وكذلك في المجلة الجزائرية للعلوم القانونية والاقتصادية والسياسية." (Lucas & claude vatin, 1975, p. 298)

وأهمية الكتاب ترجع إلى النصوص التي اختارها من كتابات العسكريين، واستراتيجيين، وأنثروبولوجيين، واجتماعيين، ومؤرخين، ومبشرين، وحشروا كلهم في زمرة الأنثروبولوجيين، وتحاول كل كتاباتهم تقديم صورة مشخصنة عن صورة الثقافة الجزائرية، وهويتها وقيمها من موقف عنصرية الآخر الاستعماري المتفوق ثقافيا وعلميا وفكريا وحضاريا، وحتى فسيولوجيا.

وعلى العموم فإن الكتاب يتضمن قسمين: القسم الأول خاص بمحاولات معرفة حقيقة الثقافة الجزائرية وفي الوقت نفسه ينتهج أسلوب الإنكار، ومحاولات المعرفة تهتم بجمع أشتات من صور هذا الواقع الثقافي الجزائري، ويحاول في الوقت نفسه تغييب ما لا يناسب استراتيجية المستعمِر بتجاهله لحقائق التاريخ والواقع، أو إنكاره وتزييفه لهذه الثقافة؛ أو التعريف بها لغرض الكشف عن مواطن الضعف للهيمنة على مقدرات الأمة الجزائرية أكثر، واختيار ما يستوجب إنكاره لطمس، وتغييب ما يقوي هوية هذه الأمة سواء ما يرجع منها إلى الدين، أم التاريخ، أم الثقافة أم الفكر، أم الحضارة..

ويتضمن هذا القسم أيضا إضفاء شيء من الموضوعية من المؤلفين للكتاب لكونه جاء بعد نيل الجزائر لاستقلالها، وبعد تبخر حلم أبدية الاستعمار للجزائر، ويتناولان ثلاث قضايا، ومنها: وحشية الاستعمار وهيمنته، وتتضمن بدورها ثلاث مطالب، والأول منها يهتم باكتشاف المجتمع الجزائري ثقافيا وتاريخيا ودينيا وبشريا، والثاني يسعى إلى غرس روح العدمية وتسلطها على الواقع الثقافي والحضاري لتفكيك المجتمع الجزائري، والثالث يمثل مقاومة ومعارضة فكرية،

ومجابهة ثورية لوحشية هذا الاستعمار، وأدى في النهاية إلى استرجاع الجزائر لاستقلالها.

ويكفي أن نذكر أن بداية المقدمة التي جاء فيها الآتي: «من البداية، وفي البداية سيطر عدم المعرفة"، واعتقد أن عدم المعرفة أو التجاهل القصد منه إخفاء الحقائق التي تخص بنية المجتمع الجزائري وحالته الثقافية والحضارية، ويضيف المؤلفان الآتي: الجزائر لا وجود لها إلا في مخيلة هؤلاء الغزاة العاكسة لحقيقة النظرة الاستعمارية المدعية للعلمية والموضوعية، وكان التفريع الثاني من المدخل يحمل عنوانا من أجل استراتيجية أنثروبولوجيا، ويقصد منها تسخير هذا العلم ليكون في خدمة الاستعمار.

كما جاءت هذه الملحوظات المقتضبة من المؤلفين لإضفاء شيء من الموضوعية في تقديمهما للكتاب، وهذا ما نلمسه أيضا في عبارة جاءت في المقدمة، ويشير فيها المؤلفان إلى أن الجزائر المستقلة تقاوم الصورة الخرافية لجزائر الأنثروبولوجيين الكولونياليين، وجزائر بعيون هؤلاء وكأنها قدرا مقدرا عليها، وهذه العيون قدمت لنا صورة ثقافية عن جزائر لا توجد إلا في خيال الفكر الاستعماري التخريبي لكل ما له علاقة بالإنسانية ولحسن الحظ فأن كتابات هؤلاء أعطت لنا جوهر العقلية الاستعمارية المتخفية وراء الدراسات المدعية للعلمية والموضوعة..

5. دراسة تحليلية وصفية لنصوص الكتاب

أما القسم الثاني، فيتضمن ما اختاره المؤلفان من هذه البحوث بين دفتي هذا الكتاب التي أخذت شكل الدراسات الأنثروبولوجيا لباحثين فرنسيين قاما بمساءلة أعمال الأنثروبولوجيين الذين سبقوهما في دراستهم للجزائر الحالية التي ما زالت ترزح تحت الاحتلال، وهي تقدم حقيقة هذه الدراسات، وقد حاول

الدارسان تقديم نظرة تاريخية شاملة عن وجهة الدراسات منذ أو وطئت أقدام جيش الاحتلال الفرنسي..

وهذا ما يمكن أن نلاحظه على عمل هذين المؤلفين أن النصوص المختارة لا يمكن قبولها بسهولة كلها، وتصنيفها جميعها حقيقة في الأنثروبولوجيا، لأن بعض هذه النصوص لا تعدو أن تكون مجرد تقارير حربية عسكرية، أو استخباراتية القصد منها تقديم النصح والاستشارة للقيادات العسكرية لتعديل استراتيجيتها، ونضرب لذلك مثلا بكتابات تحاول التأكيد على أولوية استكشاف الآخر وفهمه وفهم ثقافته من دين وتقاليد وعادات وأعراف قبل محاربته لأن هذا الفهم يسهل عملية إخضاع الأهالي، وأغلب هذه الكتابات تخص القرن التاسع عشر ومنها رسائل فرنسا التي ألقت بفيالقها العسكرية في بلد تجهل كثيرا من حقائقه الأثنية والجغرافية والثقافية.

وأغلب هذه النصوص المستلة من أبحاث مختلفة تشير إلى أنه على الرغم مما كتبه الأوربيون من الرحالة والجغرافيين والأسرى والمبشرين والباحثين في مختلف ميادين المعرفة والعلوم، وعلى الرغم من النقاش الطويل حول إيالة الجزائر في فرنسا منذ 1927م أي قبل الغزو بثلاث سنوات إلا أن الصورة العامة عن الجزائر بقيت سوداء أو في أحسن الأحوال رمادية، يقول: الأكسيس دو وتكفيل (Alexis de Tocqueville) في كتابه بعنوان كتابات سياسية لأعمال كاملة حيث يقول: "هذا الغزو غير المدروس بعمق ما جعلنا نصطدم بواقع أمة وشعب نجهل طبيعته الجغرافية وشعوبه وثقافته وعقليته وطبائعه وتركيبته الاجتماعية" (Lucas & claude vatin, 1975, p. 90)، ويقول أيضا في الكتاب نفسه ومنها نصوص مستله من كتابه حيث يقول فيه: "هذا من أخطائنا حين ورثنا من الأتراك تدميرهم للمؤسسات الإدارية والعلمية والثقافية، ولم نأت

بالبديل في بلد نجهل على الرغم من أنه لم يفصلنا عنه سوى 160 عقدة بحرية، وعلى الرغم من وجودنا مما يقارب من سبع سنوات فإننا ما زلنا ليس لدينا فكرة عن مختلف تركيبة إثنياته السكانية المتواجدة في هذا البلد، وكذلك لغاتهم ولهجاتهم، ولا نكاد نفقه أي كلمة يتكلمون بها، ونجهل حتى ثقافتهم وتقاليدهم وحتى الطبيعة الجغرافية من وديان وجبال ومدن وقرى..." (Lucas & claude vatin, 1975, p. 91)

ويضيف في مكان آخر قوله: "منذ أكثر من ثلاث مائة سنة والعرب يخضعون للحكم التركي ومهمشون، ومن ثم فقدوا أي قدرة على تسيير شؤونهم بأنفسهم وهذا ما صعب علينا التحكم فيهم، وتسييرهم بحسب مصلحتنا" (Lucas & claude vatin, 1975, p. 92)، وهكذا حاول تقديم استبداد الأتراك في حكمهم فخربوا الأرض والفكر وغابت العدالة.

وهذا ما حاولت هذه الدراسات الاستكشافية تقديمه للحملة العسكرية الاستعمارية للجزائر، وحاولت هذه الكتابات فهم تركيبة المجتمع وثقافته، ودرسوا كل جماعة وأثنية بطريقة خاصة.

"كما حاولوا صورنة كل أثنية وثقافتها، وما تتميز بها من تقاليد ومكونات هويتها من لغة ودين وتاريخ. والأثنية كما يقول علماء الإثنيات لا على أسلف السلف العرقي بل قد تكون على الاشتراك في التراث الثقافي، وما تشتمل عليه من لغة وتاريخ ودين..." (مجموعة إثنية، ينظر، 2020)

ويمكن أن نطلق على الصدام بين الثقافتين الجزائرية والفرنسية بأنثروبولوجيا صراع الثقافات؛ ونعني بها أن أي ثقافة غازية تستعمل للتحول من قوة ناعمة إلى قوة خشنة تدميرية، وتستعمل وسائل العنف الدموي، بل سياسة الأرض المحروقة تواجها ثقافة المقاومة، ومن استراتيجية الثقافة الغازية التي

تمهد الطريق لاستعمار الأوطان تؤدي إلى ظهور ثقافة المقاومة والدفاع عن كيانها السياسي والثقافي وحريتها بوسائل متعددة.

وهذا القسم من الكتاب ما هو إلا مجموعة نصوص مقتبسة مختارة من كتابات عسكريين وأنثروبولوجيين، ومؤرخين واجتماعيين، ويتجاوز عددها خمسة وتسعين بحثا موزعة ما بين سنتي 1830، 1962، وفي أغلبها تعكس مدى ما أسميناه بشخصنة مرجعيات الثقافة، ومسخ الهوية الجزائرية، وهذه الشخصنة يحاول أصحابها من خلالها احتقار الإنسان الجزائري وثقافته ومرجعياتها، ومكونات هويته من دين وتاريخ ولغة وفكر، ولا يمكن لنا ذكر كل هذه المراجع، وهذا ما سنحاول الإشارة إليه بشكل مقتضب يراعي حجم البحث، وفي الوقت نفسه يقدم صورة مفهومة للمتلقي..

وعلى العموم فإن المطلع على فحوى أغلب هذه النصوص المصنفة في مجال الدراسات الأنثروبولوجيا يثبت بما لا يترك أي مجال للشك تهمة هذا العلم بأنه وليد عصر الاستعمار لتبريره والإمعان في إخضاع الأمم والشعوب وتدمير أوطانها ومقومات ثقافتها وطمس هوياتها..

ونعود إلى كتابات الأنثروبولوجيين، ونصنفها من وجهتها الثقافية، ونسأل ما هي الصور النمطية التي قدمها هؤلاء عن الثقافة في الجزائر سواء للأوساط الفكرية الفرنسية أم للعالم؟

ونلمس ذلك في تعرضهم للكشف عن الصور النمطية للجذور الثقافية الجزائرية ومرجعياتها، وأصالة هويتها، وهم في الغالب لا يعترفون لهذه الثقافية بهوية واحدة موحدة، بل يرونها تجميع أشتات متنافرة متناقضة متصارعة، ويرجعونها إلى كيانات لا تجمعها هوية واحدة ومنها: ليبية وإفريقية قديمة وفينيقية وبربرية، ورومانية وبيزنطية وعربية، وتركية، وخطاب الهوية بعقلية

استعمارية يغيب عن قصد أن طرح إشكالية الهوية بوصفها أهم المكونات الأساسية في نفسية وفكر المجتمعات البشرية التي تخشى فراغ الانتماء، وتبقى الأنساق الثقافية بأشكالها المختلفة أهم مجال جذب تمتصه هواجس الهوية المركزية الجامعة وبخاصة ضمن أنساق الثقافة الرسمية وحتى ضمن الثقافة الشعبية غير أن هذه الأنساق تكتسب مناعة من بوتقة تاريخية تمنع قابلية خلق مجالات للهوية المضادة الانفصالية المتفرعة أساسا من الهوية المركزية الأصلية الجامعة، ولكنهم لم يدركوا أن بنية هذه الأنساق تبقى ديناميكية؛ ومن ثم فهي تملك عناصر التجاذب نحو الهوية الحقيقية الأصلية الإنسانية؛ وهي الأقوى إذا وضعت في مدرج تقويمي يبرز عناصر الإبقاء على الدائرة المركزية الواحدة الأصلية الجامعة بالإضافة إلى الدوائر المتفرعة التي لا تقبل التمرد عن مركزيتها؛ وهذا التصور سيبقى حيويا في مجال الثقافة الرسمية، وحتى الثقافة الشعبية المحلية التي تتجاوز إطار اللسان الرسمي الواحد بكونه الدائرة المركزية الحارسة لوحدة الجماعة إلى تعويضها بأنماط نسقية اعتقادية وفنية وقولية شعبية يتجاذبها قطبان محلي وإنساني ويتوسطهما البعد القومي.

ونعتقد أن عناصر التجاذب نحو القومي لا كما يذهب أغلب أراء هؤلاء الأنثروبولوجيين الكولونياليين عند وصفهم لعناصر الثقافة الجزائرية وتجسيدها لمقومات الهوية، بل إن ما أشاروا في معرض رصدهم للواقع الجزائري الثقافي والحضاري، وتناسوا أن مركزية الهوية تستوعب في جوهرها مظاهر التنوع، وتتجاوز انعدام الوحدة اللسانية، ولا يعيقها ذلك في تحقيق هذه الوحدة في الطقوس الاعتقادية والاحتفالية الفنية واللسانية الأدبية في الثقافة الشعبية لأنها تكون محل تجاذب والتقاء لكل الأشكال التعبيرية السيميائية اللسانية، وغير اللسانية المتجاوزة للمرحلية التاريخية، ويعني ذلك أنها تركيز سيميائي تعبيري شكلي زمكاني؛ فهذا الإلغاء للعناصر المضادة للتوحد يسمح ببروز الهوية

الأصلية الجامعة الموحدة الحقيقية؛ وعلى هذا التصور فإن قضية الهوية تتماهى مع النسق الثقافي الأدبي اللساني، والحركي الفني الاحتفالي، ومادتها السيميائية الحارة، أو مادتها السيميائية الباردة سواء كان من خلال تجاذب المقدس النسقي أم تنافر المدنس النسقي من جوهر الهوية، ويبدو كل ذلك في الاحتفالية الطقسية والفنية القولية بسيميائية علاماتها المتنوعة، وصور أجناس فنونها، وشخصياتها الثقافية الاحتفالية الأسطورية والسحرية، وهذه كلها يتجاذبها المركز، ويعمل على بلورة وحدة الهوية الثقافية اللسانية وغير اللسانية، وإن اختلفت مكونات الأمة الجزائرية في لغاتها ولهجاتها، وفنونها، وطوائفها الدينية والمذهبية..

وهؤلاء الأنثروبولوجيين الكولونياليين، وهم في أغلبهم حين يتكلمون عن مقومات الهوية الثقافية الجزائرية، ويركزون على الفصل بين الهوية الثقافية البربرية والهوية الثقافية العربية، وكأنهما في جزيرتين منفصلتين، وقد يتكرمون عليهما بالجمع بينهما حين ينعتونهما معا بالتوحش والبدائية والتعصب الديني والتخلف الفكري واللغوي، ونمثل بهذه الصورة النمطية الفظيعة التي صور بها الإنسان الجزائري، وهي تغني عن بقية الصور النمطية يقول بول رايينال (Paul Raynal) في كتابه بعثة الجزائر في سنة 1830 : "الجو جميل جدا، الأرض رائعة، وتنقص فقط الحضارة، وتنعدم تماما عند هؤلاء البدويين المرعبين القاطعين للرؤوس بكامل تلذذهم والتي لا يمكن تصورها وفي حمى المعركة يقبضون على الأسير، ويفصلون جثته عن رأسه ويأخذونه، ولكن عندما يأخذون وقتهم ، يبدؤون بقطع الرسغين ثم يقطعون العينين، ثم يقطعون رقبة العنق ليصنعوا وشمًا دمويًا ، ثم يقطعون الأنف في النهاية ". (Lucas & claude vatin, 1975, p. 102)

ويمكن لنا تصنيف بعض دراسات هؤلاء حول التركيبة الاجتماعية والثقافية للجزائر في مجال ما يعرف بالأثنولوجيا الإقليمية أو "الأثنولوجيا القومية"؛ وهي فرع من علم الأثنولوجيا ويسمى في اسكندنافيا " دراسات الحياة الشعبية "، وفي اليونان" لاوجرافيا Laography (Λαογραφία) "(أثنولوجي، 2020)، وهذا النوع من المقاربات نلمسه في أغلب هذه النصوص، وبالأخص ما جاء في النص الخامس المقتبس من كتاب دوماس (M.Daumas) وفابر (M.Fabar) بعنوان القبائل الكبرى دراسة تاريخية، ويطلق عليها اسم سويسرا المتوحشة تسمية تثير المدح والقدح، ولم يبين لنا ما الممدوح فيها وما المذموم، كما يعقد مقارنة طويلة بين القبائل والعرب في الملامح الفزيومينية والثقافية وبخاصة تركيزه على المرأة، وفي النص السادس أيضا المقتبس من الكتاب السابق يستعرض فيه مطولا ما سماه بأسطورة النية عند القبائل، وهو تقليد سائد عندهم آنذاك ويمثل سلطانهم، وجواز سفرهم، وهذا التقليد يتمثل في علامة قد تكون رسالة، أو سلاح أو عصا، أو غيرها تسلم من الشيخ للمسافرين عبر القبائل، أو المهاجرين، أو الفارين كي يعبروا بلاد القبائل أو يستقروا فيها في أمان، وفي النص الثاني عشر المستل من كتاب أوقست بومال (Auguste Pmel) بعنوان سلالة الأهالي في الجزائر ودور تحفظاتها ومواقفها، وهو صادر في وهران في 1971، وفيه يهتم فيه بالسلالات، ويركز على العرب المنحدرين من الجزيرة العربية، ويسكنون في الخيم، وهم رحالة في أكبر السهول، وهم أبعد الناس عن فلاحة الأرض، بل هم مخربون لها، وهم يتميزون عن القبائل أو البربر أمراء الجبال، وكذلك يتميزون عن المغاربة وعن اليهود في ثقافتهم وعاداتهم ومزاجهم، وفي نص آخر من كتاب نفسه يركز على هذا التمايز بين العرب والقبائل بقوله: "الأنظمة الاجتماعية والسياسية والثقافية في القبائل تختلف تماما عن الشعب العربي،

وهذا التباين يظهر في العادات الثقافية والحضارية كما يبدو في مقاومتهم للإسلاماوية". (Lucas & claude vatin, 1975, p. 110)

ومنها نص من كتاب الكسيس دو توكفيل (Aexis de Tocqueville) بعنوان: "كتابات سياسية لأعمال كاملة"، ويركز فيه خاصة على جانب الاختلاف بين العرب والقبائل، ومرة يستعملون مصطلح البربر، ولكنهم في الغالب يفككون هذه الأثنية لتبدوا وكأنها إثنيات مختلفة، وهذا لغرض ترسيخ الانقسام أكثر بين سكان الجزائر وإظهارهم بأنهم لا يشكلون أمة واحدة، ولا ثقافة واحدة، ولا هوية واحدة، وهذا ما يؤكد طبيعة هذه المقاربات بعقلية استعمارية قد ينسف من الأساس علم الإنسان الذي في نظرنا الذي أصبح في كتابات هؤلاء "علم الاستعمار"، ويثبت تهمة ظهور الأنثروبولوجيا بأنها وليدة عصر الاستعمار كما يصور تقاتل القبائل مع بعضها بعضا في أجواء عدالة منعدمة. (Lucas & claude vatin, 1975, p. 92)

كما يشيرون كلهم إلى" أن منطقة القبائل تقريبا مستقلة في تسيير شؤونها عن الحكم التركي ومحتفظة بلغتها وثقافتها وممارستها لشعائر الإسلام بما يوافق عاداتها" (Lucas & claude vatin, 1975, p. 92)، وكانوا يرون أن مدينة بجاية؛ وهي أهم مدن القبائل، ويصورونها بصورة نمطية كسائر المدن الأخرى، ولا يكلفون أنفسهم عن التعرف عن تاريخ هذه المدينة العريقة التي كانت قطبا من أقطاب الحضارة والثقافة الجزائرية، ومنتجة ومصدرة لها، وكانت منارة للتواصل الحضاري والثقافي بين ضفتي البحر المتوسط، بل كانت من ضمن مدن قنوات التواصل بين الحضارة الشرقية والغربية، وتضم في الأساس القسطنطينية وقرطبة، وبجاية، ولعل الاستشهاد بكتاب عنوان الدراية للغبريني يكفي لعظمة هذه المدينة التي كانت عاصمة لأقوى دولة في المغرب الأوسط، وهي الدولة

الحمادية ودورها في الإشـــعاع الثقافي والفكري ضـــمن دوائر إشـــعاعية جزائرية ومغربية، ومشـرقية وإفريقية، ومتوسـطية، وكذلك ما جاء في كتاب الفرنسـيين في الصحراء س. تريميلي(C. Trumelet) عن واد ميزاب بمدنها السبع وصورها كغيرها بتلك الصـــور النمطية، فهي منغلقة في مذهبها الإســـلامي الإباضـــي، ولها نظام الجماعة في تسـيير شـؤونها وتميزها في حياتها وعاداتها وحتى في لباسـها وفي نشـاطها الاقتصـــادي التجاري وخلفيتها الحضـــارية والثقافية والتاريخية ولغتها البربرية، ولكنه أغفل ذكر دورها الحضـــاري والثقافي والفكري في المغرب الأوســـط الذي تمثله أساسـا مكتبة المعصـومة العامة، وما تحويه من تراث محلي وإقليمي وعربي وإسلامي؛ ولم يعرفوا أو تجاهلوا عن قصد أن " محتويات مكتبتها العامة في تيهرت بلغت ثلاثمائة ألف مجلد، وتحوي أمهات الكتب الدينية إلى جانب مصـــنفات الفنون والرياضيات والصـنائع" (ابن الصـغير، 1986، الصـفحات 46-57)، وهذا التراث والإشعاع الثقافي والفكري الذي صمد أمام نوائب الدهر قد قضى ما تبقى منـه حقبـة الحكم التركي كمـا نص عليـه الكســيس دو توكفيـل (Aexis de Tocqueville) (Lucas & claude vatin, 1975, p. 92) .حين قال: "هذا الحكم الذي هدم كل شـيء في هذا البلد دون أن يأتوا بالبديل، ولم يسـتطيعوا تسـييره، فعرف فوضـى فظيعة في كل شـيء في نظامه الاجتماعي والثقافي والإداري، ويشـير إلى أن الأتراك أبعدوا ارســتقراطية العرب الدينية، وأما الكراغلة فهم أقرب إلى العرب منهم إلى الأتراك" (Lucas & claude vatin, 1975, p. 92)، "ولا يرى حاضر المجتمع الإســلامي في إفريقيا إلا أقل تحضــرا، وليس فيه إلا بقايا حضــارة غابرة متخلفة،.. والمضـحك أنه لا تعجبه من هذا التمدن إلا نظام الحمامات التركية الرائع، ويمثل جزءا من رفاهية المرأة.. " (Lucas & claude vatin, 1975, p. 94)

وفي بعض كتابات هؤلاء الأنثروبولوجيين الكولونياليين، ومنهم أوقســـت بومال(Auguste Pomel) حيث لا تســتهويه إلا فنطازية العربي وبخاصـــة حين

ينقضـــون على أعـدائهم، ويطلقون النـار عليهم، ويولون مـدبرين ليتجمعوا مرة أخرى، ويهـاجموا، و لهم دائمـا التخطيط نفســـه، ونظامهم الاجتمـاعي تســيره الجماعة التي تنتخب رئيسـا لها، وفي نص آخر من الكتاب نفسـه يقدم صـورة عن اليهودي بأقبح الصـفات، ويرى أن اليهودي هو ذلك الكذاب والمتســتر والغامض والمخـادع والكريه والمنـافق (Lucas & claude vatin, 1975, p. 135)، وفي نص مقتبس من كتـاب جورج إيفر(Georges Yver) بعنوان الغزو والاحتلال للجزائر يقول فيه: "إن المجتمع الجزائري غير مجانس عرقيا، ولا ثقافيا، ولا هوية واحدة لـه بحيث نجـد الأتراك والعرب والبربر في خلاف دائم، ولكن الجـامع بينهم الـدين ومعاداتهم لنا ، ونحن جئنا لنمدهم". (Lucas & claude vatin, 1975, p. 193)

كما يمكننا تصـنيف هذه النصـوص المسـتلة من دراسـات شـتى ضـمن الدراســات الأثنوجرافيا التي تعني بالدراســة الوصــفية لطريقة وأســلوب الحياة لشــعـب من الشــعوب أو مجتمع من المجتمعـات، واصــطلاح الأثنوجرافيـا (***Ethnography***)في بريطانيـا يعني البحوث الوصــفيـة والتحليليـة التي قـام بهـا علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون حول الشـعوب والأقوام البدائية التي درســوها دراسة ميدانية (بوطقوقة، ينظر، 2013)، وهذا ما نلاحظه في كثير من النصوص المختارة في هذا الكتاب والتي تركز على الدراسـة شـبه الميدانية في تصـوير المجتمع الجزائري وثقافتـه، واتســامها بـالانغلاق والتوحش والتخلف، واســتمرت هـذه النظرة حتى نهاية القرن التاسـع عشـر، وهذا ما نلاحظه في النص التاسـع عشـر المقتبس من كتاب لويس برتراند بعنوان الإسـلام وبسـيكولوجية المسـلمين يقول: "إبداع العرب الوحيد هو الدين، وهذا الدين هو العقبة بيننا وبينهم" (Lucas & claude vatin, 1975, p. 153)، ويقول في الكتـاب نفســه: "المســلمون بقوا متمســكين بدينهم وهذا ما حال بينهم وبين تطورهم، وبقوا بعيدين عن التجديد

والتطور الذي عرفته حضارات أخرى" (Lucas & claude vatin, 1975, p. 155)، وهذا ما نلاحظه أيضا في الكتاب نفسه، ويبدو في غاية الغرابة حين يطرح قضية مدى قابلية الجزائريين للتطور في المؤتمر الدولي لعلم الاجتماع الكولونيالي في باريس في عام 1990 برئاسة فان كول (Van Col)، وليس أغرب من هذا التشكيك في قدرة الجزائيين عقليا وثقافيا لمواكبة التطور، وعاد ليعترف بقوله: "إن عدم تطور الأهالي في شمال إفريقيا عقليا وثقافيا وحضاريا يعود إلى خطئنا لأننا لم نقم بتهذيب هذه الشعوب وتربيتها وتعليمها، وترقيتها معرفيا" (Lucas & claude vatin, 1975, p. 157)، واحتج على ذلك ليخفف من النبرة السائدة غير الموضوعية إزاء المجتمعات المستعمرة بما جاء في دراسة دو سوسير حيث يرى "بأن المجتمعات ذات البشرة السوداء قادرة على التطور بل يرى من الواجب التفريق بين درجات الذكاء في هذه المجتمعات، والتمييز بين تلك التي تعيش في عزلة وتوحش، وبين تلك التي تعيش في أمريكا، وعرفت تطورا باختلاطها بالعرق الأبيض، وظهر من بينها من أصبح شاعرا أو طبيبا أو مهندسا أو أستاذا جامعيا، وهذا ما يؤكد أن العرق الأسود قابل للتطور، ومن ثم فإن أي جماعة بشرية كيفما كان لونها إذا وصلتها الحضارة تكون قابلة للتطور والارتقاء." (Lucas & claude vatin, 1975, p. 157)

كما أن الأنثروبولوجيا التكتيكية التي لا تختلف عن عسكرة الأنثروبولوجيا الثقافية، ومن محاولة فهم العناصر الثقافية الجزائرية وتمزيقها إلى أشتات وبقايا من لغة وتاريخ وفكر وعادات وتقاليد لتمزيق وحدة الأمة والوطن، ومن هذا المنظور للعقلية الاستعمارية، فقد ركزوا كثيرا عن المختلف بين مكونات الثقافية الجزائرية البربرية والعربية والتركية، وقللوا من ومرجعياتها الأصلية، وركزوا على حضور الحضارة الرومانية والبيزنطية والوندالية.

كما يكننا الوصـــول إلى تقرير بعض الحقائق ومنها أن الثقافة العدوانية الـدموية التي تـدعي أنها ســليلة الحضـــارة والفكر التنويري المزعوم والثورة الصـــناعية المدمرة تقابلها الثقافة الانهزامية ســليلة الفكر المتوحش، وثقافة الحرب، ومن ثم فلا يمكن أن تستقبلها ثقافة السلم بالأحضان، ولو قيس الإرث الحضـــاري والثقافي الجزائري بالفرنســـي فإننا نجده أكثر عراقة منه، ولو قيس مستوى التعليم الجزائري في تلك الفترة لكان أكثر انتشارا بين عموم الشعب من الفرنسي، وهذا ما تؤكده أغلب الدراسات العلمية الموضوعية.

وتمثل هذه الأحكام بعقلية اســتعمارية في نظرنا فكر ثقافة العقول حين تصاب بمنطق المرايا المقلوبة والمعكوسة، وكذلك فكر الثقافة العدمية الهادمة في مقابل الثقافة المقاومة الصامدة والمحققة لوجودها ضمن القيم الإنسانية الخالدة.

وتبقى الثقافة في أي أمة مهما كان مستواها الحضاري هي الخزان لعبقريات أي أمة في مجالات أنماط حياتها الاجتماعية والاقتصـــادية وطرق تفكيرها، ونفســـيتها، ومزاجها، وأذواقها، وهي المشـــكلة لهوية أي أمة، والحافظة عليها من تقلبات الأزمان، وتغير الأحوال والعدوان على الأوطان، وهي في حركتها التاريخية الخاصـــة بها تختارها لنفســـها تعتقد أنه تضـــفي معنى ما على حياتها وحياة الأمة التي تنتمي إليها، وهي تجعلها تعرف كيف تخطط لحاضرها ومستقبلها مستفيدة من ماضـــيها العريق، وهي مجمل اختياراتها يعتقد أنها ترقى بها إلى الاقتراب من الكمال فيما يشـــبع رغبات طموح شـــعبها في أي مجال من مجالات المعرفة الإنسانية، وإذا كانت من صنع الأفراد، فهي تورث للأجيال، ومن ثم تصبح ملكا مشاعا للإنسانية قاطبة، وهي ليست حكرا على أي أمة بل هي كونية كالهواء ونور

الشمس يستفيد منها الجميع بسحب طاقتهم في إشباع رغباتهم موزعة على مسار حضارتهم.

إن النظرة القاصرة للأنثروبولوجيين الكولونياليين للدور الثقافي والحضاري للزوايا، ولم يدركوا بأن عملية إرساء التاريخ الحضاري الثقافي الروحي والفكري في أمة من الأمم لا يتم إلا بالكشف عن فضائه الحقيقي الذي يصنع فيه، ولن يكون الفضاء الصانع للأداء الثقافي المنتظم في القرون الماضية في الجزائر سوى الزوايا المقاومة للاستعمار وهيمنته في إرساء لسانه وثقافته، بل إن كل انطلاقة ثقافية متميزة عن الآخر بمقوماتها المحددة لهوية شخصية صانعيها في تلك الفترة تبدأ من الزوايا المقاومة، فهذا التكثيف الإشعاعي الحضاري لمهمات الزوايا تجعلها صورة مصغرة للحركية التاريخية للأمة روحيا وفكريا وأدبيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا.

ومما زاد من هاجس البحث عن الجذور التاريخية للهوية، وزادها قوة حين الالتقاء باللسان الفرنسي الكولونيالي الاستئصالي للهوية الجزائرية، وبهذه الحقائق أمكن لمفهوم الهوية الجزائرية أن تكتسب قيمتين أساسيتين:

أ ـ قيمة الهوية في الإبقاء على الانتماء والتحرر من سلطة الآخر، وفي إنتاجها لخطاب لساني معرفي وفلسفي وأدبي وجمالي وحضاري متميز مقاوم في هذه الفترة نفسها.

ب ـــ قيمة الهوية في الحفاظ على اللسان الواحد من خلال عمقه التراثي بجميع أبعاده الفكرية والأدبية بشرط أن لا يتحول إلى سجن متسلط بظلامه وأوهامه.

ولا غرو فقد واكب الخطاب اللساني الجزائري قضايا التحرر، وتنفست دلالات خطابه من الإحساس بهذا الانتماء، وعودة الوعي والثقة إلى الإنسان الجزائري لاستعادة دوره الحضاري، وإيمانه بنفسه منذ الغزو البربري الاستعماري في

القرن التاسع عشر، ثم تبلورت هذه المضامين أكثر في خطاب مطلع القرن العشرين، وما بعده، وبخاصة بعد اشتداد المقاومة اللسانية والفعل الثقافي، وأدبيات الفكر الإصلاحي والثوري التحرري في السياسة، والتحديث في اللغة والفكر والأدب والتواصل مع العالم العربي والإسلامي بثقة زائدة في نهاية القرن التاسع عشر، وامتد إلى النصف الأول من القرن العشرين.

وأحسن من يفند ما ذهب إليه هؤلاء الأنثروبولوجيين الكولونياليين ما جاء على أقلام هؤلاء، ومنهم عبد الحميد بن باديس الذي حدد معنى هوية الأمة ، ويكشف عن بعدها الجغرافي والتاريخي ومقوماتها، فيقول عنها: بأنها تمتد "...من المحيط الهندي شرقا إلى المحيط الأطلنطي غربا... تنطق بالعربية، وتفكر بها، وتتغذى من تاريخها، وتحمل مقدارا عظيما من دمها وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة". (الطالبي، 1997، صفحة 398)

كما يحدد المقومات الأساسية لهوية هذه الأمة فيرى بأنها "... زيادة على رابطة اللغة، رابطة الجنس، ورابطة التاريخ، ورابطة الألم، ورابطة الأمل، فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها ولا محالة" (الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، 1963، صفحة 398)، ويعزف معزوفته بنهاية خرافة فرنسا بأن الجزائر فرنسية، بنشيده الملحمي:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له رام المحال من الطلب

ويبدو هذا التوجه أكثر جلاء في حديث فرحات عباس عن الشعب الجزائري والذي يرى فيه بأنه واع كل الوعي لواقعه السياسي وبأنه "... جزء لا يتجزأ من ذلك العالم (يقصد العربي) كما كان يفتخر بانتمائه إلى العالم الإسلامي، حريصا كل

الحرص على الدفاع عن إسلامه يأبى الخنوع لقوم غزاة، انقضوا عليه حفاة عراة، ويمتصون أرزاقه، ويحاولون إبعاده عن قوميته ودينه ولغته وتاريخه.

إن حدود الجزائر 1830، لم تكن في حقيقة الأمر إلا الحدود الفاصلة بين المسيحية والإسلام، وحوزة وطنهم الإسلامي، وهي الأمة الإسلامية، وعن العالم العربي..." (عباس، د ت، صفحة 166).

كما يرى أبو القاسم سعد الله" أن المرء ليستغرب عندما يقارن ما اعتاد عليه الباحثون أن يصفوا به الإنسان العربي والإنسان الأمازيغي، فالأوصاف هنا وهناك تكاد تنطبق، فكلاهما حسب الروايات محب للحرية إلى حد كبير وكلاهما ديمقراطي في أحكامه وكلاهما يكره السلطة والتسلط". (سعد الله، 1978)

وبهذا نرى أن هوية أي أمة تتميز بنية أنساقها الخطابية والحضارية بالديناميكية ؛ ومن ثم فهي تملك عناصر التجاذب نحو الهوية الحقيقية الأصيلة الإنسانية؛ وهي الأقوى إذا وضعت في سلم تمييزي تقويمي يبرز عناصر الإبقاء على الدائرة المركزية الواحدة الأصيلة بالإضافة إلى الدوائر الدلالية المتفرعة التي لا تقبل التمرد؛ وهذا التصور سيبقى حيويا في مجال علاقات الألسن والأديان والفلسفات والآداب التي تتجاوز الإطار اللساني الرسمي الواحد بكونه الدائرة المركزية الحارسة لوحدة الجماعة إلى مجالات لسانية أوسع يتم فيه التفاعل والتداخل والتشاكل والتقاطع بين أنماط ثقافية لسانية وغير لسانية متنوعة ذات وظيفة فكرية واعتقاديه وجمالية بجميع أبعادها الحضارية؛ ومن ثم فستبقى الهوية. كما يرى أغلبهم. يتجاذبها قطبان لسانيان: قطب بلسان عربي ولسان محلي ببعدهما الحضاري الإسلامي الجامع بينهما، ويزاحمهما قطب بلسان فرنسي مسيحي علماني حضاري دخيل.

ونعتقد بأن دلالات عناصر التجاذب نحو الأفق الحضاري الإنساني الأوسع المتجاوب مع الأنساق اللسانية يبدو أكثر في التجارب الأدبية لأنها تكون محل

تكاثف والتقاء لكل الأشكال التعبيرية المتجاوزة للمراحل التاريخية إلى الآفاق المستقبلية، ويعني ذلك أنها تركيز لساني تعبيري مبني على الحيوية والتنبؤ.

ويبدو من هذا المنطلق بأن مسألة إلغاء العناصر المضادة للتوحد اللساني يسمح ببروز الهوية الأصلية الحقيقية؛ وبهذا التصور فإن خطابات الجزائريين حاولت استيعاب العناصر الأساسية المشكلة لهوية الانتماء الحضاري العربي الإسلامي، وبخاصة المسألة اللغوية الشديدة الحساسية.

ويحكم أنساق خطابات الهوية الفكرية والأدبية الجزائرية علاقات تضاد وتكامل في آن واحد مع بنيات الخطابات المحيطة بها؛ وعلاقات التضاد الحضاري الوجداني اللساني يخص الوجود الفعلي المستمر للفرنسية لغة دخيلة وفكرا استعماريا وأدبا كولونياليا وعلما محتكرا وسياسية تربوية هادمة لمقومات الأمة، والتي ما زالت تحمل بشكل خفي الحنين إلى الماضي الاستعماري القديم الروماني. ولا يمكن التلاقي والتفاعل بين لسانين وثقافتين مستعمِرة ومستعمَرة إلا إذا كانت مبنية على التفاهم والاعتراف بينهما، وهذا مستحيل.

إن انتصـــار أي مقاومة فكرية للحفاظ على هوية أي أمة لمجابهة ما ذهب إليه هؤلاء الأنثروبولوجيين الكولونياليين، وهذا يقتضي أن يتوسع أفق "الأنا" من خلال قبوله لمنظومة خطابية معرفية دلائلية موســعة، ومن هذا المنظور فقد حاول كثير من المقاومين لهذا المســخ المتعمد البداية من المقاربة التأصــيلية المعرفية للنســق الثقافي للهوية عامة في إطار اللســان الرســمي الواحد بكونه الدائرة المركزية الحارسة لوحدة الجماعة المشبعة بإيديولوجية حضارية مستندة على خلفيـة دينيـة وفكريـة وأدبيـة، وانفتـاحـه على دوائر مركزيـة، ومن ثم يتم التفاعل بين المراكز الثقافية المتكافئة والمتكاملة، وتختفي العلاقات المبنية على

فكرة تسلط المركزية اللسانية الثقافية الجامعة المؤدية إلى تمرد توابع الأطراف والفروع على الأصول.

إن الفرنسيين قد استعمروا الأرض، وأرادوا استعمار الفكر والوجدان، فلم يجدوا إلا اللغة الفرنسية وآدابها، والمثقف الجزائري الأصيل فهم هذه الاستراتيجية ذات الإيديولوجية الاستعمارية، ففرق بين إنسانية الأدب الفرنسي وفكره، وبين الأدب الكولونيالي، وقد تفاعل مع الأول، وأعلن القطيعة التامة مع الثاني، وعلى العموم فإن علاقة الجزائريين ذوي اللسان العربي بالفكر والأدب الفرنسيين يحكمها الانقطاع التام أو الحذر الشديد للتواصل مع الفكر والأدب الفرنسيين في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

وأدى هذا الفهم الجديد لنوايا النخب الفرنسية ومنها كتابات هؤلاء الأنثروبولوجيين في بداية النهضة الجادة في هذه الفترة لقضايا اللغة والفكر والأدب عند الجزائريين وإلى إيمانهم بأن الحدث التاريخي والثوري والثقافي والاجتماعي واللساني والجمالي متفاعلة ومترابطة في الحياة العامة للأمم والأفراد التي تعاني أصلا من الاستعمار، وما ينجر عنها من ثورات وحروب من خلفيات معينة تنتج واقعا فكريا وثقافيا خاصين، وهي حروب يشعلها "الآخر" المريض حضاريا لإخفاء نزوات مغامراته في التسلط والتوسع، وهذا ما يفسر بعض خصائص خطابات تلك الظروف التي تتسم بتثوير الفكر واللغة للمحافظة على استمرار وجود هوية الأمة ووحدتها من جهة، وذات أحاسيس لمعاناة خاصة من جهة ثانية، فهي تتضمن في تعبيرها قدرا من الانفعال، والألم، والغضب الحاد، والرفض، والثورة، ولكن هذه العواطف والانفعالات الطارئة لا تكسر نظامها العقلاني الصارم من جراء بقائها تحت سيطرة المنطق الحضاري العربي الإسلامي، أو ما يمكن تسميته بلسان وفكر وأسلوب خطاب الوجدان الثوري الإنساني الحضاري الأصيل الهادف الذي يعبر عن التباين مع الآخر ورفض سيطرته،

وتزامن في هذه الفترة ظهور مجموعة من الإسهامات الأدبية واللسانية والفكرية المتفاعلة بوعي يتناسب مع التغيرات الاجتماعية والمواقف الثورية والجهادية في الجزائر.

وجراء هذا المسخ المتعمد لواقع الجزائر وتاريخها ومقومات هويتها من هذه النخب ذات التوجه الاستعماري، فقد دفع بالإنسان الجزائري في خطابه الفكري والأدبي أن يداوم على الاحتجاج بصوت عالمي ضد الآخر لنيل موقع حضاري في عالم متحرك متغير بشكل مدهش بعد تمكينه من أسباب التقدم الفكري والثقافي، وهذا الخطاب الجديد جاء مواكبا لمراحل المقاومة، ومطالب التحرير والحفاظ على الهوية اللغوية والثقافية، وفي الوقت نفسه تم ترسيخ المكونات والأنظمة والمظاهر والرموز التي تتأسس عليها الحياة الفكرية والأدبية والاجتماعية الجديدة لهوية الأمة.

كما ينظر إلى طبائع الجزائريين بأنها متميزة عن غيرهم لهذا أوصلهم واقعهم وفكرهم وأدبهم إلى استحداث روح جديدة حتى بلسان فرنسي نفسه، فاستفاد منها الفرنسيون أنفسهم في إثراء لغتهم وأساليبهم وتصوراتهم، وبفضل هذا التميز للجزائريين حاولوا التدرج لاحتلال أعلى قمم الفكر الإنساني والفن اللساني.

ومهما كانت مأساة الاستعمار كبيرة، وقوة خطاب نخبها بأيديولوجيتها الاستعمارية ــ فإنها قد تمخضت عن وعي جديد، وأوجدت فضاء لسانيا وثقافيا وفكريا للصراع بين الحضاريتين من الاتجاهين، وقد بدأ هذا الصراع مباشرة بعد احتكاك الأمتين واكتشاف صورة الشعبين الجزائري قي وطنه والفرنسي الغازي الكولونيالي.

وإذا كان الأنثروبولوجيين الكولونياليين قد ركزوا على إبراز الثقافة الفولكلورية الجزائرية للتشويش عن حضور الهوية الجامعة المستوعبة للتنوع

والقابلة له، فإنهم قد أغفلوا عمدا قضية الرؤى والمواقف الثورية الجهادية المقاومة للاستعمار الفرنسي في التراث الفولكلوري في الجزائر، ومنها على الخصوص القصيدة الشعبية حيث تقدم لنا أجمل الصور وأنصعها وأنبلها وأشرفها وأنظفها وأعدلها وأكثرها دلالة وأصالة في جانبها الفني والنفسي والروحي وأقربها تمثيلا لقيم هذا الشعب وشخصيته المحبة للعدل والحرية في مغزاها الإنساني العريق المتسامح.

وربما نجد أقدم نص وصلنا تلك القصيدة التي ضاع أصلها بلغتها الجزائرية، ولم يبق منها غير الترجمة والتي تبكي محنة مدينة الجزائر الواقعة في أسر همجي يذكرنا ببكائيات مدن الأندلس، وهذا إن صح افتراض أنها من الشعر الشعبي، وهو أقرب الافتراضات إلى الحقيقة لأنها كتبت بنظام وشكل يجعلها أكثر انتسابا إلى الشعر الشعبي منها إلى الشعر الفصيح ومما جاء فيها الآتي: (سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، 1977، الصفحات 17- 19)

الجزائر، كانت منصورة وأميرة
من يضمد الآن الجراح التي تعانيها
إن قلبها نهر من دموع،
أواه : سأضحي بحياتي من أجل المنقذ الجزائري
الذي يسحق الصليب من سواحلنا.

فهذا الوعي المبكر لحقيقة الاستعمار في التصور الشعبي العفوي يجعلنا نقف إجلالا وإكبارا لهذا الإدراك الذي استوعب طبيعة الصراع من رؤية حضارية جهادية أصيلة لا تقل عن وعنا الحالي، وربما تتجاوزه بهذا الفهم الصحيح والصورة الدقيقة الكاملة الكاشفة للقوى الخفية الهمجية لكل ما فيه خير الإنسانية، ومن ثم تجعلنا نشكل وعي رؤانا ومواقفنا في الأشعار الشعبية بالنظر إلى ما يدبر لأوطاننا من مآسي والتي ما زال اليهودي وراءها، وما زال خائن الأمة

في مساعدته، وهذا ما أدركه الشاعر الشعبي في القرن الماضي أو القرن الذي يليه يقول شاعر الجنوب برؤيته ومواقفه المقاومة الثورية: (الحاج السعيدان، د ت، صفحة 123)

تحرير لأوطـــــان مبدأ ثورتـــنا واللي جاء في طريقنا يحرق في الحال
لا خاطر بالعدل شعشعت نوارتنا وأرشدنا ناس أوربا كانوا جهـــال
رسالات الشرق هي منهـــــجنا والفرقان هو اللي علم الأجيـــال.

وربما نصل إلى تقرير بعض الحقائق وهي أن القصيدة الشعبية كانت وما زالت تعبيرا عن ضمير الأمة ووعيها ونبضها الحضاري الجهادي، ولا عجب في ذلك فهي في أصل تكونها وحياتها وتلقيها وفعلها وموقفها وروحها ودلالتها لا تعيش إلا في أحضان الشعب وأعماقه و أفراحه وفواجعه، بل هي من البداية طلقت القصور والأرائك وأجواء ترف الملوك، ولم ترض أن تكون كلماتها طنافس حريرية ومراوح مخملية تنعش أصحاب السلطان والجاه، ومن ثم فهي المعبر حقيقة عن آمال الشعب وآلامه، وهي سنده المتين الثابت عند تجشمه مواقف تاريخية مصيرية، وقصة القصيدة الشعبية في سندها للشعب عند المحن برؤاها الحضارية ومواقفها الجهادية في الجزائر أصيلة وعريقة، وسنذكر بعض الشعراء وأعمالهم على نحو :قصيدة "احتلال مدينة الجزائر" التي يرجح أنها قيلت في سنة 1837 للشعر عبد القادر الوهراني، ومما جاء فيها : (يلس و الحفناوي، 1975، صفحة 33)

الفرانسيس حرك لـها وخـــذاها لا هي مياه مركب لا هي ميتين
بسفاينه يفرص البحر قبـــالها كي جا من البحر بجنود قوين
غاب الحساب وأدرك وتلف حسابها الروم جاوا للبهجة مشتدين
راني على الجزائر يا ناس حزين

وقصيدة أخرى لشاعر مجهول سجل فيها الأحداث التي أدت إلى احتلال الجزائر، ومما جاء فيها يصور الواقع، وطبيعة الحكم الجائر الذي أدى إلى انتصار المستعمر: (يلس و الحفناوي، 1975، صفحة 41)

أصلي تركي شجيع بـــاين اسمي حسان داي حاكم
في البهجة مدينة المحاسن حصراه أقبيل كنت باسم

ومضمون هذا الشعر في تعبيره عن واقع الجزائر يخالف تماما ما ذهبت إليه كتابات هؤلاء الأنثروبولوجيين من مسخ لوضع الجزائر، ويبدو هذا التباين في تصوير هذا الشعر للواقع الجزائري والذي يعد بتفاصيله ودقة مادته مصدرا للمؤرخ والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، ومن ثم تكوين صورة حقيقية عن المجتمع الجزائري آنذاك وصراعه المرير الطويل مع المستعمر، وقصيدة أخرى عن غزو الجزائر أيضا "للشاعر عدة بن بشير، قيلت سنة 1846" (يلس و الحفناوي، 1975، صفحة 44)، و"قصيدة ابن عبد الله التي قالها سنة 1837، وجمع فيها بين قضيتين: مبايعة الأمير عبد القادر وبطولة المجاهدين المدافعين عن مدينة قسنطينة" (يلس و الحفناوي، 1975، صفحة 48)، و"قصيدة علي بن الشرقي التي يصور فيها حوادث من ثورة الز عاطشة بالزيبان" (يلس و الحفناوي، 1975، صفحة 58)، و"قصيدة أحمد بنى دالة العامري التي يسجل فيها أحداث ثورة الشيخ بوعمامة" (يلس و الحفناوي، 1975، صفحة 65)، وقصيدة لشاعر مجهول، وأخرى للشيخ الشلالي تصوران مواقف جهادية من ثورة المقراني وابن الحداد، ومما جاء في المقطع الأول من قصيدته الثانية: (يلس و الحفناوي، 1975، صفحة 70)

نحكي لك قصة واستخبر ما عملت ذرية حيدر
طواعين القوم الكـــافر فالخزيا عملوا مقتلة
يوم أن جا طاغي يتجبر بعساكر حقدان أغلالة

صلوا على رسول الله

"وقائمة الشعراء المجاهدين وقصائدهم المجاهدة طويلة وكلها تصور جهاد الشعب الجزائري، ومقاومته عن وطنه، وثباته في صون مقوماته الحضارية، ونذكر منهم قفاف محمد بن الدولة وتصويره لفظاعة الاستعمار في حكمه العسكري للجنوب" (يلس و الحفناوي، 1975، صفحة 79)، "والشاعر ميدوني الحاج قويدر بن طريبة ودعمه بشعره لثورة أولاد سيدي الشيخ" (يلس و الحفناوي، 1975، صفحة 83)، ومن هؤلاء الشعراء أيضا "عبد السلام بن أحمد البقال، وولد بلخير، والبشير ولد حمو، وابن السويكت، وفاطمة الشريف، وعبد القادر بن أحمد المجاجي، ومحمد بن إسماعيل الجزائري، ومحمد بن بلخير، وقصائد مشهورة في أحداث القرن العشرين ومنها قصيدة حوادث 8ماي 1945 للشاعر الشيخ بلخير ولد فرحات، وقصائد الثورة التحريرية للشاعر المدني بن رحمون، وبوزيان، والحاج أحمد ولد البشير، وبلعباس محمد المعروف بابن القايد، وعبد القادر المعسكري المعروف بالعوفي، ومحمد بالماحي، وقزول الميلود، وعبد القادر بن شهرة وغيرهم" (يلس و الحفناوي، 1975، الصفحات 117-147)، ونختم كلامنا بصوت شعري نسائي قبائلي هي العجوز "جوهر"، وهي أم لثلاثة شهداء، ولقبت بخنساء الجزائر والتقت بها جريدة المجاهد الأسبوعية في سنة 1970 فأجرت معها حوارا نقتطف منه ما يأتي: "قلت (يعني صاحب الحوار) وقصيدتك الطويلة التي يتحدث عنها الناس، ويحفظون عن ظهر قلب بعضا من مقاطعها الكثيرة .

قالت آه. نتسلى إذن بالأشعار.. حين أشدها تكبر دموعي.. لا أحب أن أذكرها.. لست أدري كيف كان ذلك كله. وبكت العجوز ثم قالت أبياتا قليلة هذا معناها: (فضيل، 1956، صفحة 22)

ونبت العشب فوق قبور الشهداء
وعاد الزرزور المهاجر
عاد أسرابا.. خلف أسراب
في موسم الزيتون والتين
في أصيل خريف حزين

×××

في ماضيات السنين
ودعت أبنائي الثلاثة
تسللوا كوكبة ..ذابوا في العتمة
ودعتهم
ذهبوا في الظلام مثل الأسود
مثل نسور القمم
نسجت لهم برانس بيضاء من صوف الغنم
نسجوا لي ... لنا جميعا من دماهم
مليون ...ألف مليون علم
ذهبوا حين كان الأفق لهيبا
حين كان الحي قفرا.. كان كئبا
حين كانت الدنيا حولنا
شظايا أزيزا وجمرا
ذهبوا حين فقد الكل أمنه
ذهبوا يقضون للبلاد دينه
ذهبوا .... نسيناهم
لماذا نسيناهم؟

وكيف ينسى الحر وعده؟
نسينا.. فغطى العشب قبور الشهداء
وعاد الزرزور أسرابا خلف أسراب وأسراب
بعد طول غياب
ونحن ...
نحن ماذا فعلنا؟

فهذه القصيدة العفوية تكفي وحدها في تغيير النظرة إلى الشعر الشعبي الذي يرقى إلى أكمل النماذج الشعرية العالمية في رؤاها ومواقفها الثورية وأحاسيسها الجمالية، وكثافة دلالتها النفسية والواقعية والروحية.

6. الخلاصة والنتائج والتوصيات

- إن تبديد هذا المسخ لواقع الثقافة الجزائرية ومرجعياتها العريقة الرائجة في كتابات هؤلاء الأنثروبولوجيين الكولونياليين لا بد من التأكيد على حضور إشعاع الثقافة الجزائرية وتفاعلها ضمن دوائر حضارية وثقافية قديمة عظيمة عرفتها الإنسانية، ومنها الدائرة الحضارية الثقافية المغاربية والمتوسطية والإفريقية والعربية، والإنسانية، وللتدليل على هذه الحقائق لا بد من الإشارة في عجالة إلى صيرورة التاريخ الثقافي عامة في الجزائر قديما قبل الفتح الإسلامي وبعده، ومنها:
- إن الجزائر كواسطة عقد من منطقة الشمال الإفريقي كانت منذ القدم ملتقى لحضارات وثقافات وديانات العالم القديم، فهي المعبر للتجارب الثقافية بين مشرق هذا العالم ومغربه، كما كانت أيضا الممر الذي يجمع بين تجربة الإنسان الإفريقي، وتجربة الإنسان المتوسطي الأوروبي، وبهذا

الموقع، وبهذه المركزية كان مؤهلة لأن تكون موطنا لتفاعل الحضارات والثقافات والأفكار والأذواق والأمزجة والأحاسيس.*

- إن هذا التفاعل لم يجعل الجزائري يتخلى عن هويته الحقيقية الأصيلة، وخصوصيته المتميزة المتفردة، وهذا ما جعله لا يؤدي دور الناقل للتجارب واستنساخها، الأمر الذي قوى وجوده الحضاري والثقافي، وأبعده على أن يكون نسخا مشوهة، ولكنه ظل كيانا متكاملا لم يفقد ديناميكيته في حركية التاريخ، وما فيه من صراع وهيمنة.

- إن دور الجزائر في هذه المنطقة كثيرا ما تجاوزت مرحلة التلمذة إلى مرحلة الأستاذية للبشرية جمعاء، وهذا ما تثبته شخصية أبوليوس بكونه شاعرا وأديبا وأول روائي عالمي، ورياضي فهو أول من صاغ المربع المنطقي أو السيميائي كما يطلق عليه في الدراسات السيميائية، وشخصية القديس أوغسطين بوصفة صاحب أول إبداع في السيرة الذاتية، ومنظر للسيمائيات واللسانيات التعليمية وهو أول من طبق القراءة الصامتة في العملية التعليمة كما جاء في كتاب تودوروف نظريات الرمز (théories de symbole) (Todorof, 1975, p. 124)، وابن خلدون أول مؤسس لعلم الاجتماع الثقافي حيث قال هو بنفسه: «شرعت تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها - أي قلعة بني سلامة قرب فرندة، - وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب، الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها»، فهذه الشخصيات وريادتها العالمية في فنون وعلوم تؤكد بأن الجزائريين لم يكونوا مجرد نقلة لتجارب الحضارة الإنسانية بل كثيرا ما كانوا في موقع الأستاذية للبشرية قاطبة.

- إن الجزائر في مراحل تشكل ملامحها الثقافية بعد الفتح الإسلامي لم تكن أبدا معزولة عن باقي أقاليم المغرب أو المشرق في حياتها الفكرية، إذ نجد المذاهب والفرق والحركات السياسية في مراحل نشأتها في المشرق تمتد مباشرة إلى الجزائر، وتتجسد في كيانات سياسية مذهبية قد تتجاوز الجزائر نفسها، وتجد سندا لها في أدب وشعر يتسم بجدلية بين النسق الفني والرؤية العقائدية لهذه المذاهب، ويبدو خاصة في ازدهار شعر الفرق المذهبية وفن المناظرات.
- إن التفاعل الحضاري والثقافي لم يؤد به إلى التخلي كلية عن هويته الحقيقية الأصيلة للجزائري، وخصوصيته المتميزة، فهو ليس ناسخا، أو ناقلا للتجارب، ولكنه كان مبدعا ضمن كيان حضاري متكامل لم يفقد هويته في خضم ما عرفه من صراعات وغزو وحروب؛ فكان دوره في هذه المنطقة لم يقتصر على التلمذة على الغير بل كان رائدا في أكثر من علم وفن.
- كما أن بلاد الشمال الإفريقي ومنها الجزائر كانت مفتوحة أمام الأدب اللاتيني، واليوناني بالإضافة إلى تأثيرات الثقافات الأخرى وبخاصة الثقافة الشرقية، وبهذا الانفتاح كان المثقف الإفريقي لا يقل شأنا من غيره من ذوي الثقافات العريقة الرفيعة، ولم يكن الجزائريون يأخذون فقط، بل قدموا بعبقرياتهم للثقافة الإنسانية أعمالا أدبية خالدة.7

7.الملاحق

* - عرف المغرب من الديانات: الوثنية، واليهودية، والمسيحية، والإسلام، ومن الحضارات: الفرعونية، والفينيقية، واليونانية، والرومانية، والبيزنطية، والعربية الإسلامية؛ ومن اللغات: المحلية، والفينيقية، واليونانية، واللاتينية، والعربية.

قائمة المراجع

قائمة المصادروالمراجع

1. ابن الصغير. (1986). أخبار الأئمة الرستميين. (تحقيق: محمد ناصر). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

2. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين . (2003). لسان العرب، ج1 (ط3). بيروت: دار صادر.

3. بوطقوقة، مبروك. (2013). الأثنوغرافيا. موقع أرنتروبوس: www.aranthropos.com/الاثنوغرافيا/ethnography-

4. الحاج السعيدان، التومي. (د ت). ديوان مغذي الأرواح ومسلي الأشباح. باتنة: مطبعة عمار قرفي.

5. سعد الله، أبو القاسم. (1977). دراسات في الأدب الجزائري الحديث (ط 2). بيروت: دار الآداب.

6. سعد الله، أبو القاسم. (1978). أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

7. الطالبي، عمار. (1963). ابن باديس حياته وآثاره (ط1). بيروت: دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر.

8. الطالبي، عمار. (1997). آثار عبد الحميد بن باديس، ج3. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

9. عباس، فرحات. (د ت). حرب الجزائر وثورتها. المحمدية، المغرب: مطبعة فضالة.

10. فضيل، محمد. (1956). المجاهد الأسبوعي. المجاهد، (العدد 480). الصفحة: 22.

11. مدكور وآخرون، إبراهيم. (1975). معجم العلوم الاجتماعية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

12. يلس جلول، والحفناوي أمقران. (1975). المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

13. (2020). أثنولوجي. تم الاسترداد من ويكيبيديا الموسوعة الحرة: https://arz.wikipedia.org/wiki/إثنولوجي

14. (2020). مجموعة إثنية. تاريخ الاسترداد (09، 11، 2020)، من وكيبيديا الموسوعة الحرة: https://ar.wikipedia.org/wiki/مجموعة_إثنية

15. AUROUX, S., & WEIL, Y. (1984). Nouveau vocabulaire des études philosophie. paris: hachatte.

16. Geoscience، (2020 ,11 09). تاريخ الاسترداد(09 05، 09، 2017). أصوات مغاربية: www.maghrebvoices.com

17. Lucas, Phlippe., & claude vatin, Jean. (1975). L' Algérie des anthropologues. paris: François Maspero.

18. Todorof, T. (1975). théories de symbole. Paris: Seuils.